غادة شبير أنعشت الماضي في الأونيسكو
صوت أثيري يعلو فوق خطايا الأرض

الفنانة غادة شبير على خشبة قصر الاونيسكو. (حسن عسل)

"قدّك المياس" اغنية تليق بقامتها، بأناقة وقفتها على مسرح الاونيسكو، اصيلة في هذا القران التقي بين موهبة الغناء وهندسته، بين هذا الفوح الصادح من حنجرتها والمذاقات التي تغدقها عليها قبل ان يعلو الترنيم، صافيا، شفافا، من عصير ثمار الارض هو، من مخمل الفراشات ملمسه في النفوس.

فكلما انصتت وتمعّنت بالطقوس الليتورجية القديمة، دراسة ومدرّسة، تنقّب في ولادات الالحان وعصورها، كذلك، ودوما على مقربة من الله، اغنت معرفتها واثرت صوتها الآسر بالموسيقى الاثنية وبهذا القديم الذي ما زال الحنين الى الاندلس ينادي الى جماليته الموسيقيين والمطربين.

غادة شبير سكبت فضائل صوتها في قالب المعرفة الاصيلة وأذنها، متنبهة الى موسيقى الاقدمين وبلاغة مؤلفاتهم. هي النهمة الى المضي ابعد، مشت رسولة على هذه الدرب، تنقي الافضل وتفصل القمح عن الزؤان، حتى اذا اكتملت بحوثها واحترفت لا الغناء وحسب بل تنويط كل اغنية، وجعلها وليمة عصرية، تلذ المذاق، وفي آن تبعث بذاك الحنين الموجع الى اغاني ايام زمان.

في قصر الاونيسكو، والضوء الساطع عليها وعلى موسيقيين بقيادة سيد العود شربل روحانا، كانت لكل منهم وصلة تناغم وانسجام مع صوت غادة الفريدة، فكأن القانون والناي والرق والعود، استعارت من صوت غادة روحا وانسا، تصغي الى كل منهم، كفرد من الحضور، تصغي وفي ذاكرتها كل هذا العسل الذي عبر الزمن واضطرابات التاريخ وظل متوهجا، حرا، لونيا، على حدود السحر هو والايمان.

غادة شبير اهدت هذه الجائزة الى وطنها، هذه الجائزة التي استحقتها مع زملائها الموسيقيين، من شربل روحانا وعلي الخطيب وسمير سبليني وايمان حمصي وطوني خليفة وعبود السعدي، للعمل التراثي الذي ارادت به اعادة احياء الموشحات بتقنيات جديدة "وتبيان جمالي ورقي الحاننا القديمة من ناحية بنية الجملة اللحنية والقدرة على التصرف بالنغمات والايقاعات" – كما جاء على لسان غادة في البومها.

في قصر الاونيسكو، الى عود شربل روحانا، كان وتر ايلي خوري على عود متميز بايقاعه، برنانته، كذلك ماريا مخول على القانون وطوني خليفة على الكمان وسمير سبليني على الفلوت وعلي وهبه على الرق. تضافروا في هذا اللون الموشحاتي حتى في ارتجالاتهم وفي الارتجال اثبات بان الموروث من هذه الالحان قابع في حنايا كل موسيقي ان نقر عوده اخرج مقاما إن نفخ في الناي التوت انفاس الكون حنانا.

ولم افهم وصلة الغيتار الباس لعبود السعدي الذي عرفته غيتاريا اصيلا، فاذا بايقاعات اوتاره غريبة عن الجو الاصيل الذي ارادت به غادة احتفالا وحنينا الى الماضي.

لقد كان الباس طيرا خارج سربه ودخيلا على المقامات، ولمحاسن السمع والقلب للسفر على نسيم صوت غادة، وجد في هذا الاداء الغيتاري الحر تشويشا على سلامة الموشح وتقاليده، حتى حين تعمل غادة وشربل وفنانو التراث الاندلسي عامة على عصرنة جريئة لهذه المواويل وتلتقي بالحاضر وتظل شموسها ساطعة على الماضي. ما اجملها بداية مع موشح عصري، للاخوين رحباني "يا حبيب كلما هب الهوا". تستمع الى هذا الاداء الصحيح، الحامل جمال الخلق، وتسبّح العاطي. فمن الاخوين رحباني الى سيد درويش ومنه اختارت ثلاثة موشحات "منيتي عزّ استباري" و"حيّر الافكار" و"هذا اللي صار"، مضت الى موشحات مجهولة الهوية من "أهوى قمرا" و"هجرني حبيبي ولا ذنب لي" و"هلّ على الاستار"، كما وموال جميل لابن زيدون.

استاذة الموسيقى التراثية هي، وظل دورها يرافقها حتى على المنصة الرحبة المرصودة لحضورها. تخبر الحضور عن كل موشح، تؤنس الروح وتغذي الفكر. فمن موشح "اهوى قمرا" تعلمنا انه موشح قديم شعرا ولحنا. ايقاعه سماعي ثقيل. اما المقام فهو مقام الصبا على درجة الدوكاه. وتركت الدور للتخت الموسيقي في موشح "قم بنا حانة الحميا" واللحن نهوندي يدخل الالباب يذكر بانغام كان الاهل يغنونها في صباهم.

وارتقى صوتها الشادي في موشح "هلّ على الاستار". ومرجع هذه المثقفة في الكثير من الادوار التي أطربنا بها، مؤتمر القاهرة عام 1932، هذا المؤتمر الذي شرّع امامها عامل الاغنية العربية وعلى اضوائها دراساتها العميقة. ولمعرفة اعمق في هذا الموشح التجأت الى ألبومها تقول فيه:

"نسب هذا الموشح الى سيد درويش ولكن في كتاب مؤتمر القاهرة اعتبر قديما شعرا ولحنا. يمتاز هذا الموشح بسيطرة نغمة البياتي في الادوار ونغمة الراست في الخانة وبتغيير مفاجئ في القفلة بنغمة النهوند على النوا او قرارها...".

واذا لم ترغب بالعمق في معجم المقامات، استمع الى اوتارها تتلاعب بها، تليّن هنا، تعلو هناك وريشة التلوين تغمسها في ماء حنجرتها لتخرج بتنويسات لا تخطئ، لا تتعثر، مالسة، فيها دلال، مكثفة وفيها اغراء. صوتها قصيدة جبلتها بقصيدة الموشحات، لتعطي هذا الارث ادبا منوطا، له مراجعه بعدما كان يتنقل عبر الازمنة شفهيا. وانتقلت من جو الموشحات في جولة من الغناء العربي الخالد: "مضناك" شعر احمد شوقي والحان محمد عبد الوهاب. وعلى "بلدي المحبوب ودّيني" لحن البيتلطي و"حوّل يا غنام" اغنية بدوية قديمة، و"وقّف يا اسمر" للاخوين رحباني، و"فرّق ما بيننا ليه الزمان" اغنية لاسمهان والحان فريد الاطرش. وختمت امسيتها بموشح للسيد درويش: "هذا اللي صار".

مي منسى